**المحاضرة التاسعة: علاقات الأقطار المغاربية الخارجية (المشرق العربي، إفريقيا، أوربا).**

إن موقع المغرب العربي ذو الانتماء المشرقي والإفريقي والقريب من أوربا، جعله ذا ميزات عديدة، ومنحه علاقات خارجية متميزة، ولهذا فقد سارعت العديد من الدول إلى تعزيز تعاونها مع المنطقة.

وقد اختلفت هاته العلاقات باختلاف الدولة، ففي الوقت الذي كانت العلاقات المشرقية في أغلبها مدفوعة بطابع ديني، فإن العلاقات مع إفريقيا سادها الطابع التجاري وفي بعض الأحيان الاستعماري، وأما مع أوربا فإن هاته العلاقات طالما ارتبطت بالدافع الآيديولوجي والتجاري.

**1- العلاقات مع المشرق.**

لعل أولى هاته العلاقات هي تلك الرحلات الدينية حيث أن أغلب العلماء المغاربة كانوا يصلون إلى مرحلة يصبحون فيها ملزمين بإجراء رحلات إلى المشرق استزادة وطلبا للعلم ولقاء العلماء، ويؤكد الذهبي "أنّ أعظم ما يهتمّ به العالم إذا حج هو الاجتماع بالعلماء والاستفادة منهم".[1]وصاحب هاته الرحلات حتى النساء، فيذكر أبو عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي أن الحجيج كانوا يخالطون النساء ويلهون معهن ويختلطون بهنّ وهذا مخالف للشرع".[2]

وكانت القوافل المغاربية تلتقي كثيرا في الحجاز، مثلما ذكره الكثير من الكتاب، فيقول الرحالة المغربي العياشي عن ركب الحج المغربي الذي كان فيه بمكة

---

[1]صادوق الحاح، أثر الرحلات المغاربية على البيئة الجزائرية، مرجع سابق، ص150.

[2]جلول بن قومار وجمال سهيل، مشاهدات الرحالة المغاربة في المسالك والطرق من خلال الرحلات الحجازية، مجلة دراسات تاريخية، م.10، ع.01، 2022م، ص186.

سنة 1661م: "وبعد أن خرجنا منها لقينا ركب الجزائر القافلين من الحجاز".[3] وقد ألّف الكثير من العلماء أعمالهم في المدينة ولعلّ أبرزهم "الزاواي الجزائري 1543م، وأحمد المقري التلمساني الذي ألّف كتبه في السيرة وهو في الحرمين الشريفين، ومهدي عيسى الجعفري الثعالبي الجزائري خلال القرن السابع عشر... وغيرهم".[4]

وإضافة إلى العلاقات الثقافية والعلمية فإنّ هناك علاقات تخص النسب والانتماء، فالكثير من العائلات الجزائرية نسبت نفسها إلى النسب الشريف، أملا في الحصول على امتيازات نفسية وأخرى تتعلق بالمكانة وحتى الدخل المادي، في حين أنّ عائلات أخرى انتسبت إلى العائلات الشريفة من أجل الحصول على شرعية الحكم، مثلما وقع مع السعديين والعلويين في المغرب الأقصى، وحتى في الجزائر فإنّ الكثير من الحكام زاروا مكة والمدينة في رحلات حج لإظهار تدينهم، "فعائلة أحمد باي الذي كان طائشا في صغره خاضعا للملذات؛ أرسلته للحج أملا في أن يستقيم ويولى على قسنطينة بايا".[5] ونفس الأمر فعله ابن القاضي مع مملكته إمارة كوكو أين أكد فيرو أن أصول ابن القاضي ترجع إلى الأدراسة وأما نيل روبان فيرى أن أصوله تعود إلى إسماعيل الأغواطي العربي، ويبدو أن ابن القاضي رأى في ادعاء النسب الشريف ركيزة لحكمه".[6]

---

[3]دو ر ركب الحج الجزائري في التواصل الثقافي بين الجزائر والمشرق العربي خالل العهد العثماني، مجلة المفكر، م.5، ع.1، جوان 1212م، ص72.

[4]المرجع نفسه، ص80.

[5] ينظر: مذكرات الباي أحمد، مصدر سابق.

[6]علي بن الشيخ، مملكة كوكو و نظامها السياسي و العسكري، أطروحة الدكتوراه،جامعة مولود معمري تيزي وزو، 2018م، ص43. نقلا عن: (H) Genevois,Legende des rois de koukou,N121,1974,p3

ورغم قلة المعلومات حول التبادل التجاري بين الأقطار المغاربية والمشرقية؛ إلاّ أن المؤرخين يشيرون إلى وجود طرق برية في المغرب العربي خلال العهد العثماني تنقسم إلى قسمين سلطانية وجهوية، فالسلطانية وهي الطرق الكبرى التجارية، وتربط أقطار المنطقة فيما بينها ومع المشرق العربي، ودواخل إفريقيا المعروفة باسم السودان".[7] ويذكر هايدو وكتاب آخرون أن الكثير من السلع التي تباع في الأسواق الجزائرية كانت تأتي من الإسكندرية وبعض بلدان المشرق..."[8].

## 2- العلاقات المغاربية الأوربية 1519-1912م

كان للاحتلال الاسباني لغرناطة سنة 1492م أثر في انقلاب موازين القوى بين أوربا والعالم المغاربي، حيث انطلقوا في احتلال سواحل المغرب العربي فاستولوا على أجزاء من المغرب الأقصى وسقط المرسى الكبير سنة 1505م ووهران سنة 1509م وبجاية سنة 1510م وأذعنت الكثير من المناطق الجزائرية لدفع الضريبة، وأما تونس فقد سقطت في يد الأسبان سنة 1510م وسقطت في نفس السنة طرابلس الغرب.

لكن مع ظهور العثمانيين في المغرب العربي بدأت موازين القوى تميل لأهل المنطقة، حيث حررت أغلب المناطق المغاربية من هذا الاحتلال، وقامت على أنقاضه دول لها علاقاتها الخارجية الخاصة مع أوربا، ونفس الأمر حدث مع المغرب فبانتصار المغاربة في معركة "واد المخازن على الحلف البرتغالي الاسباني سنة 1578م دخلت مرحلة جديدة من القوة النسبية وأسست لعلاقاتها الخارجية سواء مع أوربا أو حتى الدولة العثمانية".

---

[7] محفوظ سعيداني، التجارة بأقطار المغرب العربي في العهد العثماني ما بين القرنين(18-19م)، المجلة التاريخية الجزائرية، م.02، ع.02، 2021،

[8] **ينظر:** هايدو، مصدر سابق.

بنيت العلاقات المغاربية مع أوربا في القرن السادس عشر على فكر إيديولوجي، حيث نظر العثمانيون إلى أنفسهم كقادة للعالم العربي، في حين رأى الأسبان أنفسهم قادة العالم المسيحي، حتى أن الملك الاسباني قد أعلنها صراحة حينما قال: " ربّ واحد، عالم واحد، وراع واحد".[9]

ولهذا فإن عالم القرن السادس عشر هو عالم من الحروب البحرية الكبرى بين الإمبراطورية العثمانية والاسبانية، بني في أساسه على صراع أيديولوجي، ولعل أهم المعارك الكبرى التي وقعت بين الطرفين هي معركتي بروزة سنة 1538م ومعركة ليبانتو سنة 1571م.

لقد سعى الأسبان دوما إلى إعادة احتلال المناطق التي فتحها العثمانيون خاصة بعد سقوط طرابلس الغرب في يد العثمانيين سنة 1551م وتونس سنة 1574م، ولعل أبرز الحملات التي شملت المدن المغاربية هي الحملة الفاشلة التي قادها "شارلكان على الجزائر سنة 1541م، والتي انتهت بغرق أغلب سفن الجيش الاسباني واستقالة شارلكان عن الحكم وانعزاله في أحد الأديرة للتعبد".[10]

وعلى عكس العلاقات المغاربية الاسبانية خلال القرن السادس عشر، فإنّ العلاقات المغاربية الفرنسية قد شهدت انتعاشا كبيرا حيث تمكن الفرنسيون من الحصول على امتيازات في بلدان المغاربية التابعة للعثمانيين، بموجب معاهدة الامتيازات التي وقعها العثمانيون مع الفرنسيين سنة 1535م، "وكان لهذا الاتفاق أثره المباشر على الأسبان حيث أعطى السلطان أوامره لخير الدين بربروسة بمهاجمة مدينة نيس واستعادتها من يد الاسبان سنة 1543م، ويذكر ماتاي عن هاته الحملة الجزائرية قائلا: "لقد توحد المسلمون والمسيحيون ضدّ المسيحيين، هي تلكم نقطة

[9] Norman Housley, Religious warfare in Euroupe, 1400-1536, New York: Oxford University Press 2002, p.78.

[10] De Grammont. H. D, op.cit., p.68.

خارج هامش القرن السادس عشر..."، وأما ستانلي لان بول فيذكر: "لقد انخفضت رايتنا لتعوّض بالراية المسيحية"[11]

وامتدت هاته العلاقات لتشمل الجانب الاقتصادي، حيث سيطر التجار الفرنسيون على التجارة الجزائرية والتونسية، خاصة بعد الأوامر التي أعطاها السلطان العثماني لقادة البلدين بتسهيل مهمة الفرنسيين لصيد المرجان في المنطقة، "لكن لم تبدأ عملية الصيد إلاّ سنة 1578م، ولم يختلف النشاط التجاري الفرنسي في تونس عن نظيره الجزائري حيث حصل الفرنسيون أيضا على حق صيد المرجان في تونس، ولو أنهم واجهوا منافسة شرسة مع الجنويين".[12]

وفي الجانب المقابل دخل الانجليز البحر المتوسط بعد الاتفاق الذي وقعته الملكة إليزابيث مع السلطان العثماني مراد الثالث سنة 1579م، والذي منح بموجبه امتيازات للإنجليز، وعيّن " جون تيبتون كأول قنصل بريطاني في منطقة المغرب العربي سنة 1580م"[13]، كما أدى هذا الاتفاق إلى تأسيس شركة المشرق سنة 1581م[14] بتفويض من الملكة إليزابيث الأولى، تلاه تأسيس شركة تدعى الشركة البربرية سنة 1585م تتكفل بالتجارة مع مناطق المغرب العربي [الجزائر والمغرب وتونس وطرابلس الغرب]؛ إلاّ أن هاته الشركة دمجت مع شركة البندقية التي تأسست سنة 1592م.[15]

---

[11]Stanley Lane-Poole, op.cit, p.95.

[12]قدور عبد المجيد، النشاط الاقتصادي الفرنسي في الجزائر وتونس خلال العهد العثماني، مجلة العلوم الانسانية، ع.28، ديسمبر 2007، ص271، 274.

[13]Playfair, E. L, The scourge of Christendom, Annales of British relations with Algiers prior to the French conquest, London: Smith, Elder, And Co, 1884, p88.

[14]GáborÁgoston, Bruce Masters, Encyclopedia of the Ottoman Empire, New-York: Facts On File Inc, 2009, p332.

[15]**ينظر**: Richard Hakluyt, The principal navigations, voyages, traffiques, and discoveries of English Nation, made by sea or over-land, South and south-East parts of the World, at any

ومع أواخر القرن السادس عشر برزت قوى جديدة في الصراع الدولي تمثلت في كل من إنجلترا وفرنسا وهولندا، حيث سيطرت هاته الدول على البحر الأبيض المتوسط والعالم، ولم تبني علاقاتها كليّا على الفكر الأيديولوجي، بقدر ما أقامته على مصلحة الدولة الميكيافيلية، وهكذا انتهى زمن الحروب الكبرى بين الإمبراطوريتين الاسبانية والعثمانية وهكذا برزت دول المغرب العربي في البحر المتوسط، أين أقامت علاقاتها الخاصة مع الدول الأوربية.

أطلق المؤرخون الأوربيين على الفترة الممتدة بين سنتي 1580-1680م القرن الذهبي للقرصنة، أين برزت فيه الدول المغاربية في البحر المتوسط وحتى المحيط الأطلسي، وقد كان التوافق بين البحريات العثمانية والمغرب الأقصى جليا، فقد " أقلعت السفن الجزائرية بالإضافة إلى قطع من الأسطول المغربي من مدينة سلا الساحلية خلال الحملة التي قادها مراد رايس على آيسلندا وبالتيمور بين سنتي 1627م و1631م ".[16]

ولم تشهد العلاقات الأوربية المغاربية خلال هذا القرن استقرارا، أين شهدت حملات أوربية متكررة، رغم المعاهدات الكثيرة التي وقعها الأوربيون مع سلطات المنطقة، وفي المقابل احتل الأسبان منطقة العرائش سنة 1609م ثم احتل الانجليز طنجة سنة 1662م[17]، في حين رد الفرنسيون باحتلال جيجل سنة 1664م.

---

time within the compasse of these 1600 years… exc. 2nd, London: George Bishop, Ralph Newbery, Robert Barker, 1599.

[16]Alan G. Jamieson, Lords of Sea, a History of the Barbary Corsairs, London: reaktion books ltd, 2012, p76.

[17]التنافس االسباني –االنجليزي حول المغربية خلال عهد أحمد المنصور...، مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعيةن م.5، ع02، ص101..

وقد استمرت البحريات المغاربية في نشاطها ضد الدول الأوربية المحتلة، وبقي اقتصاد دول المغرب العربي قائما بنسبة معتبرة من عائداته على الغنائم وتجارة الأسرى التي لم يتم إلغاؤها أو تقليلها إلاّ بمؤتمر إكس لاشابيل سنة 1818م، ورغم أن الأوربيين اتخذوا حجة إنهاء العبودية للضغط على الدول المغاربية لوقف تجارة الأسرى الأوربيين إلاّ أن الواقع يثبت أن تجارة العبيد قد استمرّت حتى بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، ويعتقد "بنجامين براور أنه وخلال أواسط القرن 19م وجد ما لا يقل عن 10.000 عبد في الجزائر ".[18]

وشهد أواسط القرن الثامن عشر تغييرا في موازين القوى في العلاقات بين أوربا ودول المغرب العربي، ففي الوقت الذي شهدت فيه أوربا تطورا جذريا في جميع المجالات خاصة مع الثورة الصناعية واختراع أسلحة جديدة مثل السفن العالية والمدافع القوية، كان العالم المغاربي يقبع في تخلف زادته الصراعات السياسية والقبلية تأزما، ويتضح هذا الأمر جليا "مع الحملة الأمريكية على الجزائر سنة 1815م والذي تلته حملة بريطانية سنة 1816م تحت قيادة اللورد إكسموث انتهت بتحطيم الجزائر بشكل شبه كلي، حتى أن الانجليز تمكنوا من حصار الجزائر بسفينة عالية واحدة سنة 1824م ".[19]ونفس الأمر وقع مع طرابلس الغرب حيث أرهقتها الحرب الأمريكية، والتي انتهت "باضطرار طرابلس الغرب المنهارة على توقيع السلم مع الأمريكيين في 10 جوان سنة 1805م، وتحرير جميع الأسرى الأمريكان المتواجدين في حوزة الطرابلسيين".[20]

---

[18]El Achi, Soha. *Children and Slave Emancipation in French Algeria and Tunisia (1846-1892)*. PHD, Georgetown University, 2017, p06.

[19]ينظر: قرباش بلقاسم، الأسرى الأوربيون في الجزائر، مرجع سابق.

[20] ينظر: Farber, Hannah, "Millions for Credit: Peace with Algiers and the Establishment of America's Commercial Reputation Overseas, 1795–96.", *Journal of the Early Republi, 2014.*.

أسس الاوربيون البنوك التي سيطرت على تمويل التجارة الغربية في المناطق المغاربية، ولعلّ أحد أشهر هاته البنوك، هو بنك دي روما الذي باشر أعماله في ولاية طرابلس الغرب "بداية من 15 أفريل سنة 1907م، تحت إدارة التاجر الكبير أنريكو بريشياني، حيث أصبح البنك الأداة الإقتصادية الإيطالية الضاغطة في طرابلس ، وأنشأ له فروعا متعددة في كثيرا من المدن الطرابلسية، وهكذا جعل من إيطاليا الشريكة الأولى للدولة العثمانية في طرابلس الغرب".[21]

وتجاوزت سلطات البنك الإيطالي مجرد التسيير المصرفي إلى الأحقية في شراء الأراضي من المواطنين الليبيين، ورغم الرفض الذي أبداه الوالي جعفر باشا إلاّ أنه عزل في النهاية بضغط من البنك مورس على السلطات في إسطمبول، كما استخدمته السلطات الإيطالية في إقناع الرأي العام باحتلال ليبيا، "أين ادعى البنك إفلاسه رغم بعده كل البعد عن الأمر".[22]

وانتهى الفكر التجاري الذي تبناه الأرستقراطيين إلى بروز الفكر الاستعماري الذي يهدف إلى تقاسم العالم القديم، فكانت الجزائر أول دولة مغاربية تسقط تحت نير الاحتلال الفرنسي سنة 1830م، تلاه الحماية الفرنسية على تونس سنة 1882م، ثم الاحتلال الايطالي لليبيا سنة 1911م، لتسقط المغرب في يد الأسبان والفرنسيين سنة 1912م.

### 3- علاقات دول المغرب العربي مع إفريقيا:

لقد شهدت العلاقات بين دول المغرب العربي وإفريقيا نشاطا واسعا خلال العهد العثماني؛ خاصة فيما تعلّق بالجانب التجاري، فظهرت تجارة القوافل بين

---

[21] سالم فرج عبد القادر، دور بنك دي روما في التمهيد للغزو الإيطالي لليبيا (1907-1911م)، مجلة جامعة سبها، م.7، ع.1، 2008، ص30.

[22] سالم فرج عبد القادر، مرجع سابق، ص39.

ساكنة جنوب المغرب العربي وإفريقيا، "فيذكر رينيه كييه في كتابه "سفر إلى تمبكتو" أن حمولة جمل واحد تساوي خمسة مائة رطل وأما عن سعرها فيذكر حوتيه أن ثمن نقل حمولة من تمبكتو إلى تافيلات يتراوح بين عشرة واثنا عشر مثقالا من الذهب حيث تدفع مسبّقا".[23]

وقد كانت هناك العديد من الطرق التجارية الرابطة بين الجزائر وإفريقيا مثل طريق وهران –أرزيو–تمبكتو، وطريق الجزائر العاصمة–تمبكتو، وأيضا طريق سكيكدة وقسنطينة–أمقيد والقار–تمبكتو، وكذا طريق بسكرة–جني بمالي، ومسالك ورقلة–تمبكتو، ومسلك ورقلة– تادمكة– غاو شرق مالي، ومسلك وارجلان– تمبكتو– كانو شمال نيجيريا[24]، كما برزت العديد من الحواضر الجزائر كمركز للسلع مثل "قسنطينة والجزائر ومعسكر وتلمسان، في حين كانت مدن الصحراء مراكز لمقايضة هاته السلع مثل متليلي وميزاب وورقلة وعني صالح وتوات وغات التي كانت متر هبا القوافل العابرة للصحراء المتنقلة بني إقليم تافياللت بالمغرب وواحة غدامس بليبيا وحوض النيجر بالسودان".[25]

وكانت أغلب الدول المغاربية قد بنت علاقات تجارية قوية مع الدول الإفريقية، حيث لعبت الدولة السعدية في المغرب دورا كبيرا في الارتقاء بالتجارة مع الغرب الإفريقي، أين بلغت هاته العلاقات أوجها بين سنتي 1510–1631م، وبخاصة بعد الاحتلال المغربي لهاته المناطق في عهد المنصور بداية منذ سنة

---

[23]أوزايد بالحاج، تجارة القوافل بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء في العهد العثماني ودورها الحضاري، مجلة روافد للبحوث والدراسات، ع02، جامعة غرداية، 2017م، ص103–104.

[24]شريف أسماء، شعباني نور الدين، العلاقات التجارية بين الجزائر وغرب إفريقيا خلال العصر الحديث، م.25، ع58، مجلة المعيار، جامعة قسنطينة، 2021، ص687–688.

[25]المرجع نفسه، ص690.

1585م[26]، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد راح الملوك المغاربة يتخذون من العبيد الأفارقة الذين جلبوا إلى مراكش جيشا سمي "بجيش العبيد"، حتى أن هذا الجيش نمى بشكل مؤثر في عهد الملك المغربي عبد الله الغالب بين سنتي 1517-1574م، وأشار السفير الاسباني إلى أن حرس قصر السلطان المنصور كانوا من العبيد السود[27]، وأما السلطان إسماعيل العلوي 1672-1727م فكوّن هو الآخر جيشا عرف باسم البخاري من العبيد السود الذين كانوا في خدمة أحمد المنصور، كما اشترى البعض الآخر من إفريقيا.[28]

وأما في تونس فقد برزت تجارة العبور أين كانت قوافل غدامس وفزان تأتي بالعاج والتبر وريش النعام، وتعود محمّلة بالملح والمنسوجات الأوربية والمرجان والمعادن، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فتونس كانت تقوم باستيراد الكثير من المنتوجات الإفريقية وتعيد تصديرها إلى دول المغرب العربي، ففي "عهد الباي حمودة باشا كن التونسيون يحصلون على الذهب وريش النعام والعاج من إفريقية ليعيدو تصديرها نحو المشرق العربي وليفورنة.[29]

لكن سرعان ما سيطر الأوربيون على التجارة الخارجية خاصة مع توفر الأموال أين استغلت مناطق معيّنة في تونس لصالحها الخاص، فمثلا: استغل الفرنسيون مقاطعة النيقرو أو ثامكارت التي تقع شرق طبرقة أواخر القرن السابع

---

[26]مجيد كامل حمزة، مرتكزات السياسة الخارجية المغربية في افريقيا جنوب الصحراء، المجلة السياسية والدولية، د.ت، ص146-147.

[27] محمد نبيل ملين، السلطان الشريف، الجذور الدينية والسياسية للدولة الخزنية في المغرب، منشورات المعهد الجامعي- جامعة محمد الخامس، 2013، ص301.

[28] محمد نبيل ملين، مرجع سابق، ص301.

[29] بوتوقاماس حفيظة، النشاط التجاري للمجتمع التونسي خلال العهد الحسيني 1705-1830م، مجلة معارف، جامعة البويرة، م.10، ع18، 2015، ص302.

عشر وبداية القرن الثامن عشر، والذي جعلت منه مركزا تجاريا لتسويق الحبوب الإفريقية.[30]

[30] بوتوقاماس حفيظة، مرجع سابق، ص297.